الفصل الرابع عشر

الأصول البعيدة لمحنة خلق القرآن

أثناء قيامى بهذا البحث فى أصولنا التاريخية القديمة منقباً عن الأخبار والصور التاريخية المسيئة إلينا التى أوردها قدامى المؤلفين ـ عن غير قصد طبعاً ـ لكى ننبه الناس إلى ضرورة الاحتراس منها ، ألاحظ مرة بعد أخرى أننا فى الواقع نجهل حقائق التاريخ الإسلامى ، ولا نكلف أنفسنا جهداً ، ومن هنا فإننا نردد ـ سواء فى الكتب العامة أو المدرسية ـ صوراً تقليدية وضعها مؤرخون محدثون بضاعتهم من التاريخ قليلة ، وفهمهم لحقائقه مضطرب وحافل بالأخطاء .

وربما كان أول من تنبه إلى ضرورة تقويم هذا التاريخ وبدأ عملية الإصلاح هو الشيخ محمد الخضرى الذى يعتبر ـ بلا شك ـ من عمد التأريخ للمسلمين فى عصرنا الحاضر ، فقد قرأ هذا الرجل الأصول بعناية واضحة ، وتنبه إلى ضرورة قراءة الأصول ، ونظر إلى المادة التاريخية نظرة جديدة وجادة تخرج بنا عن الصورة التقليدية التى نجدها فى مؤلفاتنا الكبرى من أوائل تاريخنا الإسلامى حتى نهايات العصور الوسطى

وخاصة الموسوعات من أمثال « نهاية الأرب فى فنون الأدب » لأبى العباس شهاب الدين أحمد النويرى المتوفى سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣١م ، وشهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م ، صاحب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ، والقلقشندى صاحب « صبح الأعشى » فهذه كلها كتب عظيمة حافلة بالمعلومات ، ولكنها كتب تجميع ، أى أن مؤلفيها جمعوا ما تيسر لهم من العلم بالماضى العربى والإسلامى ، وجمعوه فى كتب ضخمة متعددة الأجزاء ، ولكن ليس فيها درس أو تمحيص ، وبعضها ينقل لنا فصولاً من كتب ضاعت أو لم نجدها إلى اليوم ، ومن الإسراف أن نطلب إلى هؤلاء الرجال أكثر مما فعلوا ؛ إذ يكفيهم أنهم جمعوا وقدموا لنا مادة ضخمة جداً وقيمة جداً ، ولكن ليس فيها درس ولا فحص ولا تعمق في أى ناحية من النواحى التى تناولتها كتبهم .

وثانى المفكرين المحدثين الذين تناولوا هذا التراث الواسع بالدراسة والنقد ، وأحسنوا التأليف فى الحضارة الإسلامية والفكر العربى هو جورجى زيدان الذى أكثر الناس من الإساءة إليه فى حياته ، وما زال بعضنا يسىء الظن به إلى الآن ، ولكن الرجل كان - دون شك - مفكراً ، ومؤرخاً جاداً وأصيلاً ، وصاحب أثر بعيد فى فكرنا المعاصر .

وجاء بعد الخضرى وجورجى زيدان مؤلفون كثيرون ، ولكنهم تقليديون يعطوننا عن الماضى العربى صوراً جامدة لا

بحث فيها ولا أصالة ولا حياة . وأنا الآن فى هذه الدراسة أشعر أننا بالفعل فى حاجة إلى دراسة دقيقة ومتانية لتاريخنا الماضى وكتابته فى صورة أصيلة ونقدية ؛ لأن الكتابة التقليدية السريعة لا تنفع فى شىء ، وأمامك كتب التاريخ التى تكتب فى عصرنا ، سواء لأغراض تعليمية مثل الكتب المدرسية والجامعية، أو لأغراض ثقافية عامة ... وأحياناً يكون الغرض تجارياً صرفاً ، ومن هنا فإننا ـ رغم كثرة ما نكتب فى تاريخنا السياسى أو الحضارى ـ لا نكاد نعرف إلا القليل عن حقائق ذلك التاريخ معرفة سليمة وأصيلة . وأظنك قد تبينت ذلك فيما سبق من فصول دراستى هذه .

وعندما تعرضت لدراسة محنة خلق القرآن التى بدأت فى عصر المأمون ـ وهى محنة إنسانية وخلقية قبل أن تكون دينية ـ رأيت أننى لن أفهمها الفهم الصحيح إلا إذا قرأت التاريخ العباسى قبلها فى دراسة صبور متانية فى مراجعنا التاريخية الكبرى ، وهى تواريخ الطبرى (ولابد من أن ندرس تفسيره في نفس الوقت) وابن الأثير واليعقوبى وأبى الفدا ، هذا بالإضافة إلى ما كتبه ابن خلدون فى المقدمة والتاريخ ، وما أورده المسعودى فى مروج الذهب من أخبار وملاحظات هى الغاية فى الأهمية ، وما نجده عند الجاحظ من ملاحظات وآراء ـ أصيلة أو مزيفة ـ ولكنها تنفعنا فى مطلبنا هذا نفعاً عظيماً ، وكذلك لابد من دراسة كتب الخراج ، وكتاب الوزراء ، والكتاب لابن عبدوس الجهشيارى .

وأبدأ فأسأل : ماذا نعرف عن التاريخ العباسى ؟ قلت : نعرف ـ على وجه التقريب ـ كيف قامت الدولة العباسية ، ولكن ماذا حدث بعد ذلك ؟ كيف كانت هذه الدولة تدار ؟ ومن الذى كان يديرها ؟ ولماذا ـ مثلاً وباستثناءات قليلة ـ قصرت حياة الخلفاء العباسيين الأوائل ؟ فأبو العباس عبد الله بن محمد السفاح حكم أقل من خمس سنوات هجرية ، وأخوه أبو جعفر عبد الله المنصور بن محمد حكم فوق الاثنتين والعشرين سنة بقليل ، وأبو عبد الله محمد المهدى بن المنصور تسع عشرة سنة ، وأبو محمد موسى الهادى بن المهدى سنة واحدة وشهوراً ، وأبو جعفر هارون الرشيد بن المهدى حكم أقل من اثنتين وعشرين سنة ، وأبو جعفر عبد الله المأمون بن الرشيد حكم عشرين سنة ـ منها سنة حكمها إبراهيم بن المهدى ـ وأبو إسحاق محمد المعتصم بن الرشيد حكم حوالى ستة عشر عاماً (منها سنة حكمها من دمشق العباس بن المأمون) وأما أبو جعفر هارون الواثق بن المعتصم فقد حكم خمس سنوات ، وهكذا .

وهذه كلها سنوات هجرية ، ومعنى ذلك أن لدينا تسعة خلفاء فى أقل من مائة سنة هجرية . ولو أننا أضفنا إليهم إبراهيم بن المهدى لكان لدينا عشرة خلفاء فى مائة سنة ، ومعنى ذلك أن متوسط حكم الخليفة العباسى خلال العصر العباسى الأول عشر سنوات ، وهذه فترة قصيرة جدّا بالنسبة لحكم الخلفاء ، فما السبب فى ذلك ؟

هناك أسباب عديدة ، ولكن أهمها عندنا هنا هو أن الدولة العباسية كانت منذ ميلادها دولة غاصبة . وأرجو أن تعلم أن الناس فى كل عصر كانوا يعرفون كل ما نسميه بالأسرار ، فكل ما كان يجرى فى القصور كان الناس فى الشوارع يعرفونه ويتحدثون عنه ، وأن من يسميهم مؤرخونا بالعامة أو الرعاع أو الغوغاء ـ والذين نسميهم نحن اليوم برجل الشارع ـ كانوا يعرفون كل شىء يجرى فى القصور . ومن أول الأمر كان الناس فى كافة نواحى العالم الإسلامى فى صميم قلوبهم غير معترفين بالدولة العباسية . وهذه الحقيقة كانت ثقيلة جدًا على نفوس بنى العباس ، وكان لهذا أثر بعيد جدًا فى حياة الخلفاء .

ومن ناحية أخرى فإننا نعرف أن أفراد البيت العباسى كانوا مسرفين على أنفسهم فى شئون المتاع البدنى ، وخاصة الجنس والطعام ، كما سنرى عندما ندرس تفاصيل حياة الخلفاء .

الحقيقة أن الخليفة العباسى الوحيد الذى كان يقدر مسئوليته ويقوم بها خلال العصر العباسى الأول هو أبو جعفر المنصور (١٢٦ ـ ١٥٨هـ / ٧٥٤ ـ ٧٧٥م) فقد تولى أمور خلافته بغاية الجد ، وهذا الجد كان يصرفه عن النساء فكان لا يجهد بدنه . فإذا أصابه إجهاد كان يعرف كيف يريح بدنه ويستعيد قوته . خاصة أنه كان له قرب مدخل قصره غرفة فيها فرش وغطاء ، وكان إذا دخل قصره أسرع إلى هذه الغرفة

ليستريح ، وكان المنصور إداريّاً عظيماً وماليّاً دقيقاً ، فقد أحكم تنظيم دولته إداريّاً ، وهو الذى ضبط مقادير الجباية المستحقة على كل ناحية ، وهو الذى وضع أسس جمع الأموال ، وحدد موارد المال ، وأشرف على جبايته وحفظه .

والدولة العباسية نشأت فى جزء من دولة الفرس القديمة ، وورثت أساليبها المالية وإن أعطتها أسماء عربية . وقد كانت موارد الأموال بالنسبة للدولة العباسية هى الخراج والجزية والزكاة والفيء . وكان الأساس ألا تقل مبالغ الأموال التى تجبيها الدولة عما كان الفرس يجبونه من قبل وإن اختلفت التسميات ، وصاحب الفضل فى ذلك هو أبو جعفر المنصور .

والدولة الإسلامية أصبحت فى أيام أبى جعفر دولة آسيوية وجهتها آسيا ؛ ولهذا حرصت على ألا تفقد شيئاً من أراضيها الآسيوية ، حتى السند والتبت ، كانت الدولة حريصة على سلطانها فيها وجمع المال المستحق منها . فى حين أن الدولة الأموية كانت دولة متوسطية متجهة بوجهها نحو البحر المتوسط وحضارته ، وكان تطور الدولة في العصر الأموى بحريّاً متوسطيّاً ، فاهتمت بالأساطيل والموانئ وكل ما يتصل بالبحر وشئونه ، وكان اهتمامها بالتجارة عظيماً ، أما الدولة العباسية فأهملت ـ إلى حد بعيد ـ شئون البحر والسفن والموانئ والتجارة ، بل إنها جغرافيّا ضمت الأندلس ومعظم المغرب ، فكانت آخر حدودها من ناحية المغرب هى الحدود

الغربية لولاية إفريقية ، وولاية إفريقية كانت تلى مصر غرباً . وأقصى حد لها فى الغرب كان نهراً يسمى نهر شلف الذى ينبع من جبال الأطلس جنوبى ميناء يجليه الحالية ، ويسير إلى الشمال حتى يقارب البحر المتوسط عند موقع جنوبى مدينة الجزائر الحالية ، ثم يتجه نهر شلف إلى الغرب ، ويسير محاذياً للبحر حتى يصب فيه عند مرسى هنين غربى وهران . ولكن الدولة العباسية عرفت على أى حال كيف تحافظ على ولاية إفريقية ، وتحميها من الخوارج ، وتطردهم إلى خارج حدودها الغربية .

وقد كانت الدولة العباسية تحمل فى سبيل ذلك عبئاً ثقيلاً جداً حتى تولى أمر إفريقية هرثمة بن أعين ، وهو من أكبر القواد العسكريين والحكام الإداريين فى الدولة العباسية فى أيام هارون الرشيد وولديه الأمين والمأمون ، وهو الذى أوصى هارون الرشيد بالاستجابة إلى ما طلبه إبراهيم بن الأغلب من أن تقطعه الدولة إفريقية لقاء خراج قليل نسبياً . ولكن أهم ما كانت تعنى به دولة بنى العباس هو المحافظة على مذهب السنة فى إفريقية .

وقد نجح إبراهيم بن الأغلب فى ذلك ، وظل هو وأولاده مخلصين للدولة العباسية ، وصاحب الفضل فى ذلك هو أبو جعفر المنصور الذى عاش حتى قارب السبعين من العمر بعد أن ضبط الأمور المالية والإدارية للدولة العباسية . وكل ما لدينا

من إحصائيات وأرقام عن دخل الدولة إنما يرجع الفضل فيه إليه . . وهذه الأرقام تصور الأحوال المالية للدولة فى أيامه .

ولقد تدهورت تلك الأحوال تدهوراً بالغاً فيما بعد ، ولكن الجهد الذى بذله المنصور فى ذلك الميدان سيظل الأساس المالى للدولة إلى آخر أيامها .

وقد حكينا فيما سبق حكاية تدل على أنه كان مقتصداً جدّا فى شئون النساء ، حتى إنه لم يتزوج إلا امرأة واحدة ، وهذه طبيعة وخلق فيه ، ونجد هذا الطبع فى الكثير من الناجحين من رجال الدول الإسلامية ، مثل عبد الرحمن الداخل ، وعبد الرحمن الناصر .

ومع ذلك فقد كان هذا الرجل منهوماً إلى الطعام بشكل غير عادى ، بل يمكن أن يقال إنه كان مرضاً فيه ، ويروى الطبرى فى ذلك خبراً عجيباً ، رواه له أحد أصحاب المنصور يسمى على ابن محمد بن سليمان النوفلى عن أبيه قال : كان المنصور لا يستمرئ طعامه ، ويشكو ذلك إلى المتطببين ، ويسألهم أن يتخذوا له الجوارشنات (أى الأدوية الهاضمة مثل بيكربونات الصودا) فكانوا يكرهون ذلك ويأمرونه أن يقلل من الطعام ، ويقولون له : إن الجوارشنات تهضم فى الحال ، وتحدث من العلة ما هو أشد منه عليه . حتى قدم عليه طبيب من أطباء الهند فقال له كما قال له غيره . فكان يتخذ له سفوفاً جوارشنا

يابساً فيه الأفاويه والأدوية الحارة ، فكان ياخذه فيهضم طعامه ، قال النوفلى : قال لى كثير من متطببى العراق : لا يموت والله أبو جعفر أبداً إلا بالبطن ، قلت له : وما علمك ؟ قال : هو يأخذ الجوارشن فيهضم طعامه ويخلق من زئبر معدته (أى يضعف من أحماض بطنه) كل يوم شيئاً وشحم مصارينه فيموت ببطنه ، ويبدو أن هذا صحيح ، فقد مات أبو جعفر وهو فى الطريق إلى مكة ، وقد أصابه حر من ركوبه فى الهواجر (أى ركوبه فى السفر فى الأيام الحارة) وكان رجلاً محروراً على سنه يغلب عليه المرار الأحمر ، ثم هاض بطنه فلم يزل على ذلك حتى نزل على بستان عامر ، وتوفى فى السحر أو مع طلوع الفجر ليلة السبت لست خلون من ذى الحجة سنة ١٥٨هـ / أكتوبر ٧٧٤م إذ كان قريباً جدًا من مكة ، ولكنه لم يصلها .

وكان معه مولاه المؤتمن الربيع بن يونس ، وهو والد الفضل بن الربيع وزير الأمين الذى تحدثنا عنه وسنعود إليه ، وعلى ذكر الربيع بن يونس نقول : إن المشكلة الكبرى التى أضعفت خلفاء بنى العباس وضيعت الدولة العباسية آخر الأمر هم رجال الدولة (أى رجال الإدارة من الوزراء) فهؤلاء كانوا بالفعل على مستوى متواضع من الكفاءة ، فكانت تسيطر عليهم الأنانية المفرطة . والسبب فى ذلك هو أن العباسيين كانوا يعرفون من أول الأمر أنهم غاصبون ، وأن الشعب لا يحبهم ولا يؤيدهم ؛ لأن رأى الناس كان أن بنى على بن أبى طالب هم

أصحاب الحق فى هذه الدولة ؛ لأنهم فى الحقيقة كانوا خيرة بنى هاشم . والعباس بن عبد المطلب نفسه لم يكن من الصحابة المخلصين ؛ فقد كان عدو الإسلام معظم حياته ، وحارب الإسلام فى بدر ووقع أسيراً ، وأمر الرسول ﷺ آمره بألا يتخلى عن فديته ، وكانت أربعة آلاف درهم ، وقال : إنه غنى كثير المال . ثم إنه أسلم فى نفس الوقت الذى أسلم فيه أبو سفيان صخر بن حرب ، وقد قلنا ـ فيما سبق ـ : إن أبا سفيان كان أذكى من العباس ، وقد قدم لقريش والإسلام خدمة كبرى عندما جعل مكة مدينة حرة ؛ ومن ثم فقد استطاع الرسول ﷺ ضمها إلى الإسلام دون حرب ، فسلمت مكة من ويلات الحروب ، وسلمت قريش من الفناء .

ومن أكبر الأدلة على الشعور بأن العباسيين غاصبون وأن أمة الإسلام لا تريدهم هو مقتل أبى سلمة الخلال وزير آل محمد، وما كان من الغدر بابن هبيرة ، ثم مقتل أبى مسلم الخراسانى على صورة بالغة البشاعة ، كل ذلك أبعد العباسيين عن قلوب الناس ، وجعل تعلقهم الحقيقى يتجه نحو الفقهاء ؛ فهم كانوا فى الواقع رجال أمة الإسلام يتعلق بهم الناس فى كل مكان . وكان كبراء الفقهاء يتحاشون أى اتصال وثيق بالعباسيين ، وهذه هى « الحالة » التى أخذت صورتها الحاسمة فى محنة خلق القرآن .

ثم إن غدر هارون الرشيد بالبرامكة كان له صدى بعيد فى قلوب الناس ؛ لأن البرامكة ـ وإن كانوا فرساً ـ فإنهم كانوا محسنين ومخلصين ، وقد تصرفوا فى أمور الدولة بإذن ورضا من العباسيين . وكانوا فى الواقع محسنين وكرماء وفضلاء ، فكان يحيى البرمكى رجلاً كاملاً فاضلاً ، وقد أخلص فى خدمة بنى العباس ، واستخدم مواهبه الإدارية الكبيرة فى إدارة الدولة بعد المنصور ، ولم يقل أحد قط إنهم كانوا مسيئين أو لصوصاً ، ولولاهم لما استطاعت الدولة العباسية أن تقر فى مكانها ، خاصة أن المهدى ثم الهادى لم يكونا على شىء يذكر من الكفاءة ، وإذا كان المهدى قد حدد للدولة رسالتها الحقيقية وهى حماية السنة والقضاء على الزندقة ، فإن الهادى لم يكن بشىء ، وكان فى عزمه أن يخلع أخاه هارون (الرشيد) عن ولاية العهد ، لولا أنه مات قتيلاً على صورة غير واضحة ، والرأى السائد عند المؤرخين القدامى هو أن التى دبرت موته كانت أمه الخيزران ، وكانت من أقدر النساء ، وكانت عواطفها مع ابنها الأصغر وهو هارون الرشيد .

وجاء هارون الرشيد ، وهو فى مجموعه مشكلة تاريخية ؛ فإنه ليستوقف النظر أنه كان قليل الإقامة فى بغداد . ويقال : إنه كان يخافها ويخاف البرامكة ، ولكن خوفه من بغداد وأهلها لم يفارقه . فنجده دائماً وسط عساكره متنقلاً بين بلدان المشرق ، ومن هنا جاء قولنا : إنه كان يغزو عاماً ويحج عاماً ،

وهو لم يكن غـازياً عظيماً ولا كـان كثيـر الحج ، ومع أن الناس كانوا يحـبونه لكرمه وورعه وعـدله فإن نكبته للبـرامكة كانت ضربة قاضيـة على سلطانه ، وبعد البرامكة اعتمـد الرشيد على الفـضل بن سهل وابـن عمـه وهو الحسـن بن سهل ، وهمـا من الفرس كالبرامكة ، بل كان شعورهما بفارسيتهما أقوى وأعمق ، والفضل كـان يتحـدث فى مجالسـه بالفارسـية ، وكان مـعادياً للعرب فى بلاط العباسيين ، وخـاصة على بن الحسين الهمذانى زعيم الأزد ، وكـان متغلبـاً على الموصل هو وأخوه أحـمد وأهل بيت من الأزد ، وقـد أخطأ على بن الحسين خطأ فـاحشـاً عندما قتـل رجلاً من الأزد يسـمى عون بن جـبلة ، فانقلب الأزد علـيه وعلى أخويه أحمد وعلى وقتلوهم .

★★★